

العرب وروسيا: ثوابت العلاقة وتحولاتها الراهنة

23 و24 أيار/ مايو 2015

الورقة المرجعية

يتّسم الحديث عن العلاقات العربية - الروسية بالتعقيد، فمن جهة يصعب القول بوجود رؤية عربية موحّدة في العلاقة مع روسيا، وذلك لاختلاف مصالح الدول العربية معها وتتوّعها، ومن جهة أخرى تتفاوت النظرة إلى روسيا والموقف منها بين النخب العربية، والحكومات، والرأي العام العربي. وفي العموم، يمكن القول إنّ من أبرز سمات هذه العلاقة أنها ظلت نخبوية واقتصرت على السياسة العليا (High Politics)؛ إذ لم تستطع روسيا أن تحقق اختراقاً ثقافياً على مستوى القاعدة الشعبية العربية، وذلك على الرغم من أنّ آفاقاً من الشبان العرب - خاصة في الدول التي كانت حليفة الاتحاد السوفياتي السابق وقت الحرب الباردة - درسوا في روسيا، وتزوجوا مواطنات روسيات.

يسعى هذا المؤتمر إلى تحليل هذه العلاقة المركّبة والتعرّف إلى أوجهها المختلفة، أخذاً في الحسبان التحولات التي طرأت عليها منذ الحرب العالمية الأولى ونشوء الاتحاد السوفياتي من جهة، ونشوء النظام الإقليمي العربي في الفترة نفسها تقريباً من جهة أخرى.

وعلى الرغم من أنّ العلاقات العربية - الروسية ضاربة جذورها في التاريخ؛ إذ تعرّف العرب إلى الشعوب الروسية منذ مطلع القرن العاشر الميلادي عندما اعتنقت بعض القبائل السلافية الإسلام، فإنّه لا يمكن الحديث في العصور الحديثة عن وجود علاقات عربية - روسية، خاصة في المشرق العربي، قبل الحرب العالمية الأولى، فقد نشأت الدولة العربية إثر تفكك السلطنة العثمانية وانفصال العرب عن الأتراك. وقد بدأ الاهتمام العربي فعلياً بروسيا مع انتصار الثورة البلشفية عام 1917؛ إذ جرى من خلالها الكشف عن المراسلات السرية

التي أدت إلى اتفاق سايكس - بيكو، وتقسيم مناطق السيطرة العثمانية في المشرق العربي بين الدول الاستعمارية الأوروبية.

وبسبب موقف الثورة البلشفية المناهض للغرب الاستعماري، وتبنيها الاشتراكية نظامًا اقتصاديًا - اجتماعيًا يسعى إلى تحقيق العدالة الاجتماعية، واللاحق بركب الحداثة والتصنيع، تأثر بها جزء من النخب العربية، فنشأت الأحزاب الشيوعية العربية، وكان أولها الحزب الشيوعي الفلسطيني الذي تأسس عام 1919، ثم السوري عام 1924، ثم نشأ حزب شيوعي في كل بلد عربي تقريبًا.

لم تتطور العلاقات الروسية - العربية كثيرًا في فترة ما بين الحربين بسبب انشغال الاتحاد السوفياتي بمشكلاته الداخلية، ووقوع معظم العالم العربي في قبضة الاستعمار الغربي، لكن هذا لم يمنع الاتحاد السوفياتي أن يكون مثلًا أول دولة غير عربية تعترف بالمملكة العربية السعودية وتقيم معها علاقات دبلوماسية عام 1926.

وبعد إنشاء دولة إسرائيل، تعقدت العلاقات الروسية - العربية، فقد كان الاتحاد السوفياتي أول دولة تمنح اعترافًا قانونيًا (de jure recognition) للكيان الذي قام على أنقاض فلسطين، وذلك بعد يومين فقط من الإعلان عن إنشائه في 15 أيار/ مايو 1948، بالمقابل لم تعترف الولايات المتحدة قانونيًا بدولة إسرائيل إلا في العام التالي، على الرغم من أن واشنطن كانت أول من اعترف بإسرائيل كدولة أمر واقع (de facto recognition). وقد ترك هذا الموقف أثرًا بالغًا في العلاقات العربية - الروسية، لكن الحرب الباردة ساهمت في إعادة بعض التوازن إليها. فمع اشتداد الصراع العربي - السوفياتي على النفوذ والتأثير في المنطقة العربية، ومع تنامي التهديد الإسرائيلي للأمن القومي العربي، خاصة بعد الهجوم الإسرائيلي الشهير على قطاع غزة عام 1955، وكان تحت الإدارة المصرية، نشدت الدول العربية السلاح عند الروس الذين سارعوا إلى تقديمه لاستمالة العرب إلى جانبهم في إطار الحرب الباردة، فكانت صفقة الأسلحة التشيكية مع سورية ثم مع مصر، والتي أسست لشراكة سياسية وعسكرية روسية طويلة الأمد مع الجمهوريات العربية (مصر، وسورية، والعراق، والجزائر، وليبيا فضلًا عن منظمة التحرير الفلسطينية). وقد شكل العدوان الثلاثي على مصر عام 1956 محطة بارزة، ساهمت في دفع العلاقات العربية - الروسية وتطويرها؛ إذ ساهمت الضغوط السوفياتية والأميركية في وقف العدوان، كما شكّلت الموافقة السوفياتية على تمويل سد أسوان وإنشائه، والذي مثّل محطة بارزة في المشروع التنموي لثورة 23 يوليو، نقطة تحول إيجابية أخرى، فتحت الباب على مصراعيه أمام حضور سوفيياتي كبير في شؤون المنطقة العربية طوال فترة الحرب الباردة، من خلال ثنائية الدفاع والتنمية.

وساهمت صفقات الأسلحة والمساعدات والخبرات التي قدّمها السوفييت للعرب في إعطاء دفعة قوية لجوانب أخرى من العلاقات؛ إذ جرى إيفاد آلاف الطلاب الشبان من المدنيين والعسكريين إلى الاتحاد السوفياتي طلبًا للتدريب والتعلم. واحتل هؤلاء بعد عودتهم إلى بلدانهم مواقع قيادية في مؤسسات الدولة وأجهزة الحكم، ما ساعد

على إنشاء علاقات قوية على مستوى النخب والمؤسسات. وقد استمرت هذه العلاقة حتى انتهاء الحرب الباردة وسقوط الاتحاد السوفياتي.

مع سقوط الاتحاد السوفياتي انشغلت روسيا بمشكلاتها الداخلية من جديد؛ فترجع النفوذ الروسي في المنطقة على جميع المستويات، وتحول عدد كبير من حلفائها باتجاه إنشاء علاقات أوثق مع الغرب، في حين توثقت العلاقات الروسية - الإسرائيلية. وقد استمر الغياب الروسي عن المنطقة العربية حتى قام الرئيس فلاديمير بوتين بأول زيارة إلى العالم العربي عام 2005 عندما زار القاهرة، وأعقبها بزيارة إلى السعودية عام 2007. لكن عودة الحضور الروسي القوي إلى المنطقة لم يحصل إلا بعد ثورات الربيع العربي التي اتخذت روسيا منها موقفاً سلبياً في العموم، تركز بقوة في موقفها المعادي للثورة السورية؛ إذ استخدمت روسيا حق النقض "الفيتو" ثلاث مرات في مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة دفاعاً عن النظام السوري، وقدمت له جميع أشكال الدعم للحفاظ على استمراره وبقائه.

لقد جاءت العودة الروسية إلى المنطقة بعد غياب استمر نحو عقدين في سياقٍ مختلفٍ عن سياقات الحضور السوفياتي خلال الحرب الباردة، وخدمة لمصالح أخرى. ففي حين شكلت العوامل الأيديولوجية (تصدير أفكار الثورة البلشفية) والجيوسياسية (التنافس مع الولايات المتحدة على النفوذ والسيطرة) جوهر مصالح الاتحاد السوفياتي خلال سنوات الحرب الباردة، تحولت روسيا نحو مصالح ذات طبيعة مختلفة، فابتعدت في السنوات الأخيرة عن المواقف الأيديولوجية، وبدأت تتجه نحو سلوكٍ نفعي براغماتي بشكل متزايد؛ فشكّلت قضايا الطاقة، وتحقيق مكاسب اقتصادية، والحفاظ على مصالحها ونفوذها السابق وبخاصة في سورية، ومنع صعود تيارات الإسلام السياسي خشية تأثيرها في الأقليات المسلمة التي تعيش في أقاليمها، جوهر سياساتها الخارجية نحو المنطقة العربية.

بناءً عليه، وانطلاقاً من أهمية دراسة العلاقات العربية - الروسية في ظل محاولات روسيا العودة إلى المنطقة من بوابة رفض الثورات ومقاومة التغيير ومحاربة الإرهاب مستفيدة من حالة الانكفاء الأميركي، وفي إطار سلسلة المؤتمرات التي عقدها المركز العربي بشأن علاقات العرب مع القوى الإقليمية والدولية، مثل: العرب وإيران (كانون الأول/ديسمبر 2010)، والعرب وتركيا (أيار/مايو 2011)، والعرب والقرن الأفريقي (تشرين الثاني/نوفمبر 2011)، والعرب والولايات المتحدة (حزيران/يونيو 2014)، يعقد المركز في أيار/مايو 2015 مؤتمراً أكاديمياً حول العلاقات العربية - الروسية، ويسعى من خلاله لمناقشة قضايا وإشكاليات من أهمها:

- إبراز التقارب والتناقض في طبيعة التفاعل التاريخي العربي - الروسي.
- تحديد حقيقة المصالح الروسية في المنطقة العربية، وتغيرها، وارتباطها بمشاريع روسيا الكبرى (مثل الاتحاد الأوراسي، ومشاريع نقل الطاقة).
- تحديد مواقع العرب وتركيا وإيران وإسرائيل في الإستراتيجية الروسية تجاه المنطقة، وديناميات التفاعل بين هذه القوى في ضوء التطورات الراهنة في الإقليم.
- تحديد أدوات التأثير في السياسة الروسية وآلياته، في مقابل أدوات التأثير الروسي في المنطقة العربية وآلياته.
- التعرف إلى موقف روسيا من ثورات الربيع العربي ودوافعه ومنطلقاته والتغييرات التي طرأت عليه، إن كان ثمة تغييرات.
- التعرف إلى دور النخب الثقافية العربية التي درست أو ما زالت تقيم في روسيا (مدى إمكانية بناء لوبي عربي فاعل).
- التحقق من وجود خيارات عربية واقعية في التعامل مع روسيا، ومواقفها المعارضة لطموحات الشعوب العربية في التغيير والديمقراطية.
- استكشاف مدى إمكانية الانتقال من حالة التناقض إلى حالة التقارب في العلاقات العربية - الروسية، عبر تعزيز المصالح المشتركة، والتفاهم بشأن القضايا الخلافية، والتأكيد على وجوب الاهتمام بمصير الشعوب وليس الأنظمة فحسب.

القضايا والمحاوير

المحور الأول: البعد التاريخي: فترة الاتحاد السوفياتي والحرب الباردة.

المحور الثاني: العلاقات العربية - الروسية في السياقات الدولية والإقليمية الراهنة.

المحور الثالث: روسيا وثورات الربيع العربي.

المحور الرابع: قضايا الطاقة (التعاون والتنافس في مسائل الإمدادات والأسواق).

المحور الخامس: روسيا والإسلام السياسي.

المحور السادس: العلاقات الروسية مع القوى الإقليمية: إيران وتركيا وإسرائيل، وانعكاساتها على الموقف من القضايا العربية.

المحور السابع: مفهوم "الحرب على الإرهاب" في السياسة الروسية، والحرب على تنظيم الدولة الإسلامية.

المحور الثامن: البعد الثقافي والصور النمطية المتبادلة.